التصوف عند الغزالي

Sufism according to Al-Ghazali

أ. د. أسماء عبد الله غني

Prof.Dr. Asma Abdallah Gani

كلية الآداب / جامعة بغداد

College of Art, University of Baghdad

الملخص

يعد الامام الغزالي من ابرز الشخصيات الروحية في تاريخ الامة الإسلامية ومن ابرز الشخصيات الإسلامية انتشاراً في معلومات القدامى و المتأخرين، بسبب فكره الموسوعي والمهام الكثيرة التي مارسها وما ارتبط بها من هموم واعباء فكان فقيها ومتكلم وفيلسوفاً ومتصوفاً.

بعد الازمة النفسية التي تعرض لها الغزالي والتي دفعته الى البحث عن اليقين فأوصله تفكيره الروحي وايمانه القوي بالله الى التصوف، والتصوف عند الغزالي ليس حالة عرضيه اعترته في حالة ضعف وعجز بل هي نزعه عميقة تعود جذورها الى نشأته الأولى. حيث ولد وتربى وتتلمذ على ايادي شيوخ صوفيه، فكانت له نظرته الخاصة للتصوف التي تختلف عن غيره من المتصوفة اذ أصطبغ تصوفه بمنهج اهل السنة والعقيدة الاشعرية، فأمتاز تصوفه بالصفاء والاعتدال نظرياً وتطبيقياً كما امتاز بخلوه من المواقف اللامعقولة، فهو يؤمن بوجود معارف باطنية وراء الحقائق الحسية وهذه غاية الحياة العملية والنظرية ومقصد الصوفية والانبياء فكان ذلك مجدداً في التصوف شأنه شأن الفقه وعلم الكلام والفلسفة فكان حامياً للدين الإسلامي ممن كان يقوض اركانه.

الكلمات المفتاحية: (الغزالي، التصوف، الازمة النفسية، الفلسفة، المنقذ من الضلال).

Abstract:

Imam Al-Ghazali is considered one of the most prominent spiritual figures in the history of the Islamic nation, He is one of the most prominent Islamic figures who is widely known in the information of the ancients and the later ones, Because of his encyclopedic thought and the many tasks he practiced and the concerns and burdens associated with them, he was a jurist, theologian, philosopher, and mystic. After the psychological crisis that Al-Ghazali suffered, which led him to search for certainty, his spiritual thinking and strong belief in God led him to Sufism.

Sufism, according to Al-Ghazali, is not an occasional state that befell him in a state of weakness and inability, but rather it is a deep tendency whose roots go back to his early development. Where he was born, raised, and studied at the hands of Sufi sheikhs, he had his own view of Sufism that differed from other Sufis, as his Sufism was tinged with the approach of the Sunnis and the Ash'ari doctrine. His Sufism was characterized by purity and moderation in theory and practice, just as it was free of unreasonable positions. He believed in the existence of esoteric knowledge behind sensory facts, and this is the goal of practical and theoretical life and the goal of Sufism and the prophets. This was a renewal of Sufism, just like jurisprudence, theology and philosophy, and it was a protector of the Islamic religion from those who were undermining its pillars.

Keywords: (Al-Ghazali, Sufism, psychological crisis, philosophy, the savior from error).

المقدمة

يعد التصوف بمثابة التجربة التي توقف المؤمن على حقيقة ما يؤمن به والإحساس بها فهي رتبة من رتب اليقين، أو سلم لمن أراد أن يرقى بإيمانه إلى مقام الشهود، وهو ما عناه الشارع بمقام الإحسان، وهو مقام " أن تعبد الله كانت تراه " فاختياري لهذا الموضوع – تجربة أبي حامد الغزالي الصوفية من خلال كتابه المنقذ من الضلال - راجع لأهميته التي تتجلى في كشفه عن حقيقة التصوف آنذاك والذي عرف انحرافات وسلالات ما أنزل الله بها من سلطان.

وكان من الأسباب التي دفعتي الاختيار هذا الموضوع أن الغزالي انتدب نفسه للدفاع عن أهل السنة في عصر اشتد فيه الصراع بين المذاهب الأصولية.

وحيث أن «الصوفية» صفوة مختارة تقدم بسلوكها نماذج عليا للسلوك مثلا لاستلهام والتأسي قدر الطاقة وليس المطلوب أن يكون عامة الناس صوفيين، وإلا اختل نظام الحياة الإنسانية، كما أنه ليس من المطلوب أن يكون عامة الناس علماء مبتكرين عاكفين على البحث العلمي الخالص. ولما كان التصوف مكان ملحوظ في تاريخ الإسلام، وكان التصوف هو الهدف البارز لبحوث الغزالي، وكانت شهرة هذا الأخير بالتصوف أكثر من شهرته بغيره حسن أن يكون التصوف نصيب ملحوظ من الرعاية والعناية في هذا البحث.

ولكن بحوث هؤلاء وأولئك لم تستطع أن تكشف عن غموض تاريخ شخصية وسيرة الغزالي الزمنية والفكرية والعلمية، خصوصاً الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على سبيل المثال - لم تجد من المؤرخين من يكشف عن هوية وشخصية الشيخ الذي ربي الغزالي بعد وفاة أبيه، واسمه ونسبه مع أن هذا الشخص - على ما نرى- هو أول من أثر في شخصية الغزالي، ثم ما تعرفه لا يزيد عن قولهم أنه رجل صالح ومن كبار الصوفية، وهكذا عن نسب أبويه، وأخواته وزوجته وأبنائه واصول نسبه عربية أم فارسية وما إلى ذلك.

وفي الحقيقة أن تاريخ الغزالي في كل لحظة من لحظات حياته، وفي كل محطة من محطاته العلمية منذ نيسابور إلى بغداد ثم إلى طوس مرة ثانية لا يخلو عن حركته ونضاله في إصلاح وتكوين قضايا عصره.

ومن هنا نقصد بهذا البحث الكشف وتحقيق أفكاره وموافقه ونضاله، من خلال تجربته الصوفية التي يجهلها بمس الباحثين والقرآء.

المبحث الاول

اولاً المولد والنشأة:

هو حجة الإسلام ابو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي الغزالي الشافعي، اطلقت عليه تسمية الغزالي لان اباه كان غزالا يغزل الصوف وقيل لان اصله من قرية غزالة من قرى طوس فيكون الغزالي بتخفيف الزاي، ولد الغزالي في مدينة الطابران احدى بلدتي طوس سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وتوفى فيها سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م[١].

كان ابوه رجلا فقيرا صالحا يغزل الصوف ويبيعه في دكانه في مدينة طوس فياكل من كسب يديه وكان يطوف على الفقهاء ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ويجد في الاحسان اليهم والنفقه بما يمكنه، وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع الى الله ان يرزقه ابنا واعظا فاستجاب الله دعوته فرزقه بابي حامد الذي صار افقه اهل زمانه وباخيه أحمد الذي صار واعظا مؤثرا [٢].

بدايات طلب الغزالي للعلم:

عندما قاربت وفاة والد الغزالي وكان ابناه في ذلك الوقت صغاراً اوصى بهما الى صديق له من اهل الخير ومن شيوخ القرية وقال له «ان لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط ، واشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين فعلمها ، ولا عليك ان تنفق في ذلك جميع ما اخلفه لهما»[٣].

---

(١) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابراهيم بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) تحقيق: احسان عباس (بيروت :دار صادر، ١٣١٨)، ج٤، ص٢١٦.

(٢) سير اعلام النبلاء، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط ٣ (بيروت:مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥)، ج١٩، ص٣٢ ؛ طبقات الشافعية، ابو بكر احمد بن محمد بن عمر ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٧)ج٢، ص ٢٠٦.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين السبكي (٧٧١هـ / ١٣٦٩م) ، تحقيق: محمود محمد الطناحي ، ط٢(بيروت : دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٣هـ)ج٤ ،ص١٠٢ ؛ سير اعلام النبلاء ، الذهبي ، ج١٩ ، ص ٣٣٥.

ولما توفى والده اقبل الوصي على تعليمهم الى ان فنى المال الذي خلف لهما والدهما، فتعذر الوصي على رعايتهما والانفاق عليهما قائلاً « اعلما اني انفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به واصلح ما أرى لكما الا ان تلجأ الى المدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ففعلا ذلك. وكان الغزالي يحكي عن هذا ويقول : "طلبنا العلم لغير الله فأبى ان يكون الا لله" [١] وكان الغزالي يقرا طرفا من الفقه في بلده على احمد بن محمد الراذكاني. [٢] لم تتوقف طموحات الغزالي العلميه الى هذا الحد فقد ارتحل الى مدينة نيسابور والتقى هناك بامام الحرمين الجويني وتتلمذ على يديه ولازمه وجد واجتهد حتى برع في المذهب والجدل والخلاف والمنطق والفلسفة وقرا الحكمة واحكم كل ذلك ، وفهم كلام ارباب هذه العلوم وصنف كتبا لكل فن من هذه العلوم واجاد في تصنيف مصنفاته ، وبقى ملازما للامام الجويني حتى مات سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) [٣].

بذلك يقول الكيلاني [٤] «التحاق الغزالي بأمام الحرمين لا يمكن فصله عن طبيعة الغزالي نفسه وعن التيارات الفكرية آنذاك ، فإمام الحرمين اشعري شافعي والاشاعرة كانوا يتصدون الاتجاهات الفكرية ، ولذلك كانوا أكثر جاذبية لنفس الغزالي الشاب، ولعقله المتطلع إلى المعرفة والانتماء».

قرر الغزالي بعد وفاة الجويني الخروج الى المعسكر متوجها الى الوزير نظام الملك اذ يعد مجلسه مجمع ال العلم فناظر الائمة في مجلسه وقهرهم فاجادوا بعلمه وفضله حتى عينه الوزير السلجوقي نظام الملك مدرسا في المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ودرس بالنظامية فاعجب الخلق بعلمه وكماله. [٥] فكان يقرا على يده اعداد كبيرة من الطلاب ويصف حاله بالنظامية قائلا «انا ممنون بالتدريس والإفادة لثلاثمائه نفر من الطلبة ببغداد» [٦] انصرف

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي، ج٤ ،ص١٠٢.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ج٤، ص٩١.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ج٦، ص١٩٦؛ سير اعلام النبلاء ، الذهبي ، ج١٩ ، ص٣٣٥.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، ماجد عرسان الكيلاني ، ط٣ (الامارات العربية المتحدة: دار القلم ، ٢٠٠٢) ص٢٢.
(٥) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ج٦، ص١٩٦.
(٦) المنقذ من الضلال ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) ط١(القاهره : مطبعة الجمالية ، ١٣٢٩هـ) ص ١٠.

الغزالي في بغداد الى دراسة الفلسفة فطلع كتب الفلاسفة بصورة عامة وكتب ابن سينا والفارابي بصورة خاصة والف على اثر ذلك مصنفه مقاصد الفلاسفة ثم صنف بعد ذلك مصنف اخر ابطل فيه مذاهب الفلاسفة عرف باسم تهافت الفلاسفة.[١]

العلوم التي برع فيها:

بعد الإمام الغزالي موسوعة عصره، فلم يترك علماً إلاّ اشتغل وبرع فيه، حتى أصبح يفوق أرباب هذا العلم، فعند دراسته لأي علم فيبدأ بالتساؤلات، ومن ثم يدخل في غمار العلم ويتعمق فيه ثم يؤلف فيه ذاكراً ما له ما عليه، فيخرج لنا بنظرة مستقلة عن هذا العلم، لذا هو يعتمد على منهج الشك العلمي، ومن تلك العلوم التي برع فيها :

١- علم الكلام:

درس الإمام الغزالي علم الكلام من أستاذه المجدد في المذهب الأشعري إمام الحرمين الجويني ، لكنه لم يتقلد فيما تعلم منه، كما تعلق بالمذهب الأشعري تعمقاً كبيراً، حيث أصبحت له نظرة مستقلة، يوافق الأشعري في بعض المسائل، ويخالفه الرأي في مسائل أخرى، كما أخذ ينتقد الكلاميين على مؤاخذاتهم بعلم الكلام وتكلفهم بمعرفة التقسيمات المرتبة، والدلائل الكلامية، وأن من لم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلة المحررة، وأن من يجهل ذلك، فهو شاك في يقينه وناقص في دينه، فقال في المنقذ من الضلال[٢]:

«إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادقته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودي، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.....».

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ج٦، ص١٩٧؛ البداية والنهاية ، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، (بيروت : دار المعارف ، ١٤١٠هـ) ج١٢ ، ص١٤٩.

(٢) المنقذ من الضلال ، الغزالي ص ١٣.

كما ذكر في فيصل التفرقة[1]: «ومن أشد الناس غلواً وإسرافاً، طائفة من المتكلمين كفّروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي قررناها فهو كافر فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانياً....».

٢ - علم المنطق:

تعمق الإمام الغزالي في دراسة علم المنطق حتى فاق علماء المؤسسين له، وقد جعل علم المنطق أداة إسلامية يستعان بها في الاجتهاد والفقه وجعله علماً إسلامياً منهجاً ومصطلحاً وطبعه بسمات العقلية الإسلامية كما قد بدأ الغزالي ناقداً للمنطق ثم أخذ بتجويزه، وللغزالي مصنفات في علم المنطق.

٣- علم الفقه:

كان الإمام الغزالي متبعاً في الفقه الإمام الشافعي ، فقد دافع في كتابه المنخول[2] عن تقديمه للشافعي على الأئمة غيره.

لم يكن اتباعه للمذهب الشافعي بدون دليل ففي بعض الأحيان يختار رأياً يخالف في ظاهر المذهب، وهذا دليل على أنه كان إذا ظهر له الدليل فهو معه سواء أكان مخالفاً للشافعي أم موافقاً له.

يقول الشيخ أبو زهرة[3] في ذلك: «قد يقول القائل: إن الغزالي كان شافعياً وقد اختار أن يكتب فقه الشافعي ويدونه، أهو مقلد أم غير مقلد؟. وتقول في الإجابة في ذلك: إن الغزالي كان شافعي المذهب لا شك في ذلك، ولكن الفارق بينه وبين غيره أنه لم يقبل أقوال الشافعي إلا أنه قد أرتضى منهاجه فقد أرتضى الأصول التي قررها، وصدقه في الروايات التي رواها، لأنه

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)/١١١١م) ، (بيروت: دار البيروتي ، ١٤١٣هـ) ، ص ٧٥.

(٢) المنخول من تعليقات الأصول ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ) / ١١١١م)، تحقيق: محمد حسن هيتو ، ط (دمشق: دار الفكر ١٤١٩٠هـ)، ص ٦٠٠ وما بعدها.

(٣) محمد الغزالي فقيه بحث ضمن مهرجان الغزالي ، ص ٥٦٧.

عدل ثقة، وارتضى منهاجه في الاستنباط، ووجد الأقيسة التي انتهى إليها صحيحة سليمة من كل الوجوه، فكان لا بد أن يسلم معه بالنتائج التي وصل إليها، وبذلك لا يكون قد قبل بلا حجة، بل قبله بحجة ودليل».

كان للغزالي مؤلفات عديدة في الفقه وتعد كتبه الفقهية الحلقة الوسطى في تطور التصنيف في المذهب الشافعي، فمن المعلوم أن كتب الشافعية عبارة عن حلقات متصلة:

- كتب الشافعي وأصحابه كالمزني والبوطي.
- كتب إمام الحرمين الجويني وتلميذه الغزالي.
- كتب الشيخين الرافعي والنووي.
- كتب أصحاب الشروح والحواشي من المتأخرين[١].

وبهذا خطا الغزالي خطوة واسعة في كتابة الفقه بأسلوب جديد يستشعر القارئ معه النظرة الكلية للفقه الإسلامي تلك النظرة التي تتعامل مع الإنسان كله ، جسماً وروحاً، عقلاً وفكراً[٢].

٤- علم أصول الفقه

كان للإمام الغزالي مؤلفات أصولية عديدة لكن منها ما كان مفقوداً، ومنها ما طبع، ومنها ما لم يطبع، فمن مؤلفاته المطبوعة

«**كتاب المنخول من تعليق الأصول**»: يعد من أوائل الكتب التي ألفها الغزالي في الأصول على الإطلاق، ويبدو أنه كتبه في أواخر حياة شيخه إمام الحرمين الجويني وقد يظهر فيه الغزالي تلميذاً لإمام الحرمين، وقد ناقش فيه أسباب تقدم المذهب الشافعي، وأبطال مذهب أبي حنيفة، وتميز منهجه في المنخول بأنه غالباً ما ينسب الأقوال إلى قائلها بدقة.

«**كتاب شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل**»: وقد اعتمد في هذا الكتاب على أسلوب المناظرة والإلزام بالحجة، وقد اتخذ طريقة السؤال والجواب منهجاً في

(١) تحقيق كتاب الفتاوى للإمام حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ /١١١١م)، علي مصطفى الطسة ، رسالة ماجستير ، جامعة أم درمان الإسلامية ، كلية الدراسات العليا ، ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م)، ص ٤٢.

(٢) الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المئة الخاصة، صالح أحمد الشامي (بيروت: دار القلم (١٩٩٣) ، ص٢٢٧.

عرض وفهم المسائل، وقد أورد في هذا الكتاب كثيراً من الأمثلة والتطبيقات المسائل التعليل والقياس التي لا توجد في كثير من كتب الأصول، وفي ذلك تبين قدرته الأصولية في تنزيل القواعد الأصولية إلى التطبيقات العملية[١].

«**كتاب المستصفى في علم الأصول**»: وهو أحد الكتب التي اعتمدت على طريقة المتكلمين أو الشافعيين، إذ يعد آخر الكتب الأصولية التي ألفها الإمام الغزالي، قد ألّفه بعد خروجه من خلوته، فيعد هذا الكتاب محطة مهمة في تجديد علم أصول الفقه، إذ يتضمن إضافة نوعية على مستوى المضمون تمثلت في مقدمة في مدارك الفقه، وقد رتب فيه الغزالي المادة الأصولية في إطار هيكلية لم يسبق إليها، حيث قسم الموضوعات الأصولية على أربعة محاور: الأول الحكم، والثاني أدلة الحكم، والثالث كيفية استثمار الأحكام، والرابع حكم المستثمر. وقد استمر الأصوليون في الاعتماد على هذه الهيكلية، فيعتبرون هذا الكتاب نقطة استقرار لكل من المضمون والشكل في مجال أصول الفقه إلى غاية القرن الثامن الهجري[٢].

٥- علم التصوف وهو محور أساس بحثنا وسأفرد له مبحثاً كاملا من هذا البحث.

(١) قراءة في كتب الإمام الغزالي الأصولية ، زينب طه العلواني، بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة ، السنة السابعة ، العدد : ٢٧ ، ٢٠٠١م، ص ١٢١.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ج ١، ص ١٩٦؛ سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ج ١٩ ، ص ٣٣٥.

المبحث الثاني
التصوف عند الإمام الغزالي

أولاً: قبل انتقاله إلى التصوف

عندما نتحدث عن الغزالي الفيلسوف، نجدنا نتحدث عن الغزالي الفقيه والصوفي، ذلك أنه مزج كل هذه الأمور بعضها ببعض، ولقد تميز الغزالي الفيلسوف بالجرأة والشجاعة والذكاء[١]؛ فقد واجه الاتجاهات الفكرية المختلفة التي سادت في عصره بذكاء وشجاعة نادرين، وكان نقده مركزاً على نقد الفرق المتطرفة من منطلق إخلاصه للإسلام، وكان في نقده لها يتسم بالنزاهة والموضوعية، وأثبت الغزالي في رده على الفلاسفة ومخالفتهم للإسلام في بعض الجوانب، وحذر الناس من اتباع طريقتهم من غير مناقشة أو تمحيص، كما كشف عن أباطيل الباطنية، وفضح ضلالاتهم بعد أن درس أسرار مذهبهم وعرف حقيقة أفكارهم، وكان أمر تلك الفرقة قد استشرى واستفحل خطرهم سياسياً ودينياً، وقد أراد الغزالي من رده عليهم تحجيم خطرهم والتقليل من نفوذهم الديني والسياسي بعد تعريتهم والكشف عن زيفهم وضلالهم وتوضيح أهدافهم[٢].

في سيرته الذاتية، يكتب الغزالي أنه خلال فترة تدريه في نظامية بغداد درس أعمال الفلاسفة على مدى عامين قبل أن يكتب تهافت الفلاسفة ، فقد قدم الغزالي أعمالاً أورد فيها نقولات أمينة لتعاليم الفلسفة، وصل إلينا منها اثنان منها أولهما: عبارة عن نبذة كاملة تقريباً من كتاب طويل ينسخ الغزالي فيه أو يعيد صياغة مقاطع من أعمال الفلاسفة، ويضيف إليها نقل شامل لمذاهبهم في الميتافيزيقيا، ولا تحمل هذه النبذة للأسف عنواناً، والعمل الثاني: مقاصد "مقاصد الفلاسفة"[٣] ، وهذا العمل ليس مجرد حكاية لمذاهب الفلاسفة، وإنّما ممثلاً لآراء الغزالي الحقيقة في الفلسفة[٤].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى السبكي ، ج ١ ، ص ٢١٣.

(٢) م ن ، ص ٢٠١.

(3) Griffel. F. opstasie und Toleranz im Islam. Die Entwicklung zu al-Gazalis Urteil gegen die Philosophen und die Reaktionen der Philosophen. Leiden, 2000. P. 32.

(٤) أعمال أبو حامد الغزالي، عمر بن سهلان صافي ومجد الدين الجيلي ، طهران، مركز ناشر دنشجه.٢٠٠٢)،

أما كتابه " تهافت الفلاسفة " يعد بأنه رد على الحركة الفلسفية، وهو ما ساهم في الافتراض الخاطئ بأنه يعارض الأرسطية ويرفض آراءها. لكن رده على الفلسفة كان أعقد بكثير، ومكنه من تبني الكثير من آراءها، ويشكو الغزالي في بداية التهافت من اقتناع الفلاسفة بأن طرق معرفتهم المبنية على البرهان أرقى من المعرفة الدينية المأخوذة من طريق الوحي وتفسيره المنطقي. وأن هذه القناعة أغرت طائفة من الفلاسفة المسلمين، فتجاهلوا الإسلام ورفضوا الشعائر والشريعة[١]، ومن هنا بدأ ينطلق انطلاقة جديدة إلى التصوف بعيدة عن مسار الفلسفة يسبب بعدها عن المعرفة الدينية والشريعة الإسلامية.

ثانياً: النزعة الصوفية في حياة الإمام الغزالي

لقد كانت حياة الإمام الغزالي حافلة بالأحداث المثيرة والكثير من الرحلات التي أثرت في تكوين شخصيته، لاسيما تتلمذه واتصاله بالكثير من العلماء والشيوخ الذين تركوا بصمة راسخة في حياته العلمية والروحية والعلمية على حد سواء[٢].

والنزعة الصوفية في حياة الإمام الغزالي لم تكن وليدة الصدفة، بل كان لها جذور عميقة تعود إلى نشأته الأولى حيث ولد في أحضان أب صوفي، ونشأ وترعرع على يد مرب صوفي بعد وفاة والده. ثم تتلمذ على يد شيخ صوفي وصاحب طريقة اطلع الإمام الغزالي على الكثير من أساليبها، وتشبع الكثير من تعاليمها[٣].

كما كان الإمام الغزالي قد تلقى دروساً في التصوف وأصوله على يد الإمام الزاهد أبي الفضل بن علي الفارمدي الطوسي، فكان لها الأثر البارز في تبلور الأفكار الصوفية عنده[٤]، لاسيما وأن الفارمدي كان شيخ طريقة صوفية لها أساليبها وتعاليمها الخاصة.

ج ٢، ص ٦٢.

(1) Griffel. Op. cit.. P. 33.

(٢) بداية الهداية، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥/١١١١م)، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: مكتبة مدبولي، (١٤١٣هـ) ، ص ٢٤ ٢٤٤.

(٣) بداية الهداية، الغزالي، ص٢٤٤.

(٤) الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص، عبد الكريم العثمان ، (القاهرة: مكتبة وهبة ، ١٩٦٣م) ، ص ٣٣.

بعد وفاة الإمام الجويني سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) بدأت مرحلة البحث عن الحقيقة وعن الذات، وتعد هذه مرحلة جديدة في حياة الإمام الغزالي. لاسيما بعد اعتلاء شأنه في بغداد عند توليه مدرساً بالنظامية والالتفاف حوله المعجبون[١] ، آثار ذلك الضغينة والعداء والحسد من الباطنية والفلاسفة والإسماعيلية مما زاد من قلق الغزالي والخطر المحدق به من كل جهة ، فبدأت أزمته الشكيّة التي دامت قرابة شهرين ويظهر أن الشك كان مرتبطاً عنده بالفلسفة ولذلك ناه يكرس ثلاث سنوات بعد ذلك لتعمق بالكلام والفلسفة ليضع مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة وفضائح الباطنية وفضائح المستظهرية [٢].

ثم قرر الخروج من بغداد في رحلة كان لها أكبر الأثر في حياته الروحية ، إذ يقول الإمام الغزالي ثم لاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم ، فأنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة فلم أزل أتردد بين تجاذب الدنيا ودواعي الآخرة قريباً تسعة اشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري أظهرت عزم الخروج إلى مكة وانا أدبر في نفسي سفر الشام.... ففارقت بغداد[٣].

وقد استمرت رحلته خلال عشر سنوات وبدأت هذه الرحلة من بغداد ومكة ، دمشق، القدس. الإسكندرية ثم العودة إلى بغداد وكان الغزالي خلال هذه الرحلة زاهداً سلك منهج الصوفية.

ثم لم يلبث أن اشتد على الغزالي حنين الوطن فاتجه إلى مدينة طوس حيث استقر بها تسع سنوات وخلال هذه المدة انغمس الغزالي على إكمال مصنفه إحياء علوم الدين ثم قضى سنتين في مدينة نيسابور ثم عاد مرة أخرى إلى طوس فانشأ فيها مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية حتى وافته المنية سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م)[٤] ، وهكذا أمضى الغزالي حياته كلها حتى مماته كما قال السبكي[٥] ، «طيب الثناء اعلى منزلة من نجم السماء لا يكرهه إلا حاسداً

(١) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، محمد علي أبو ريان ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د.ت) ص ٣٣٧.

(٢) المنقذ من الضلال ، ص ١٢٦.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ج ١ ، ص١٠٥.

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) تحقيق: محمد الارناؤوط ، (بيروت: دار ابن كثير ، ١٤٠٦هـ) ، ج ٣، ص ٤٨٨

(٥) طبقات الشافعية الكبرى. السبكي ، ج٤ ، ص ١٠٥.

وزنديق ولا يسومه بسوء إلاّ جائر عن سواء الطريق".

ثالثاً: أصول التصوف عند الإمام الغزالي

يقوم التصوف عند الإمام الغزالي على التركيز على المؤمن أي الصوفي، وعلى أهم ما فيه، وهو «القلب» الذي يعتبر منبع المعرفة الذوقية. كما وأن القلب عند الإمام الغزالي ليس تلك العضلة داخل جسم الإنسان، بل تلك البصيرة، فمتى تحقق للقب كمال معرفته، تفيض عنه السعادة التي لا وجود لتحصيلها إلا بالارتقاء إلى أعلى العليين.

والمؤمن أي «الصوفي» عند الإمام الغزالي، هو من حصلت له الهداية، والهداية من حيث كونها جوهر العلم، تخضع لظواهر متعددة متضادة كالبداية والنهاية، والظاهر والباطن فلن يصل المؤمن إلى النهاية إلا إذا تمكن من البداية، ولن يدرك الباطن إلا بعد أن يطلع على الظاهر(١).

أي أن الصوفي عند الإمام الغزالي من جاهد نفسه مجاهدة، فقام بتطهير قلبه من الخطايا، وانغمس في العبادة التي يقسمها الغزالي إلى قسمين:

١- عبادة ظاهرية: يجب الالتزام بها.

٢- عبادة باطنية والتي ترجح كفة الحسنات ويتم ذلك كما يرى الإمام الغزالي، من خلال عزلة مستديمة أساسها الشعور بخلوة القلب مع الله فعندئذ يدرك المؤمن قيمته أمام هذا الخضم الهائل الكبير من العوالم، وهو يلج العزلة الحقيقية في عبادته، حيث يشترط الإمام الغزالي أن تكون وسيلتها الهداية(٢).

ويركز الغزالي كثيراً على عبادتي الباطن والظاهر، لأن هذا الازدواج هو السبيل المحقق للكشف الذي ينشده في إيمانه بربه(٣).

وإذا كانت العبادة على درجة كبيرة من الأهمية عند الإمام الغزالي، فإن العلم كذلك فيجب على المؤمن أي «الصوفي» ألا يتخلى على أحدهما (العبادة والعلم). حيث يجعل الإمام الغزالي تعلم بعض العلوم فريضة عليه وهي علم التوحيد وعلم السر و «هما علم المكاشفة»،

(١) بناية الهداية ، الغزالي ، ص ٢٤.

(٢) م ن ، ص ٢٤٤.

(٣) منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، (ت ٥٠٥ / ١١١١م) (بيروت: دار المنهاج للنشر والتوزيع ، ١٤٢٧هـ) ، ص ١١٥.

وعلم الشريعة و «هو علم المعاملة».

يعرف الغزالي علم المكاشفة، بأنه العلم الذي اختص بأصول معرفة الله وإدراك صفاته؛ لأن معرفة الله هي التي تثمر المحبة له[١].

أما علم المعاملة، فهو علم العلائق الحياتية الخاضعة للنفس مع معرفة النفس المذمومة والمحمودة، وبعد هذا العلم هو المنظم للعبادة الظاهرة[٢].

وقد اعتمد الغزالي على عدة مراحل لتطهير قلب المؤمن، ومنها:

- أن يبعد المؤمن حب الدنيا عن اهتمامه ؛ لأن هذا الحب أساس كل خطيئة.
- أن يبدأ بالعبادة الظاهرة التي تدفعه إلى التوبة.
- بعد التوبة تتحقق الهداية.
- الهداية مرحلة أولى للعزلة.
- تنفع العزلة الصوفي إلى التأمل في ذات الله ليبعث على مشاهدة الحق.
- المشاهدة تؤدي إلى إيجاد المحبة لذات الله.
- بالمحبة لذات الله، يتحقق الكمال في المؤمن[٣].

أما آداب الصوفي، فقد حددها الغزالي بقوله: «قلة الإشارة، وترك الشطح في العبارة، والتمسك بعلم الشريعة، ودوام الكد، واستعمال الجد، والاستيحاش من الناس، وترك الشهوة وإظهار التحمل، واستشعار التوكل، واختيار الفقر، ودوام الذكر، وكتمان المحبة، وحسن العشرة في الصحبة، والغض عن المردان، وترك مؤاخاة النسوان، ودوام درس القرآن[٤].

ولا يمكن أن يصل الصوفي إلى هذه الدرجة إلا عبر ثلاث مراحل، أولها الصبر والمرحلة الثانية تكون بالمجاهدة، أما المرحلة الثالثة فهي التجريد. فبالصبر على العبادة، ومحاسبة

---

(١) الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥/١١١١م) تحقيق: عبد اللطيف عاشور ، (القاهرة : مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع ،١٣٧٢هـ)، ص ٢٠٤.

(٢) الكشف والتبيين ، الغزالي ص ٢٠٤.

(٣) بداية الهداية ، الغزالي ، ص ٢٧١-١٠٢١٤ الكشف والتبيين ، الغزالي ، ص ٢١١ – ٣٠٧.

(٤) الأدب في الدين ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، (ت ٥٠٥ / ١١١١م)، (القاهرة : دار ابن حزم ، ١٣٢٢هـ) ، ص ١٤.

النفس والتجريد، يصل الصوفي إلى حد التوكل والتفويض[١].

وهنا يصل الصوفي إلى ذروة التصوف وهو الزهد الروحي بعد الزهد الجسدي. أي إلى مرحلة الصفاء. حيث يتم فيها التجلي بالذوبان، فيتحقق القرب من الله.

كما يركز الإمام الغزالي على الجوع حيث يعتبره رأس مال الصوفي، وهذا مذهبه ومذهب أشياخه[٢] ، فالجوع هو الذي يربي الصوفي ويروضه، فالعذاب الجسدي يحول التفكير إلى الذات ثم إلى ما وراء هذه الذات أي إلى نقطة متمركزة فوقية في الذات الأعلى، «فالشبع يمنع من العبادة»[٣].

يقول الإمام الغزالي: «أول الحجب بين العبد وربه - نفسه - فإنه أمر رباني عظيم وهو نور من أنوار الله، أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق، كما هي حتى أنه ليشح يجعله العالم كله، ويحيط به صور الكل فعنده يشرق نوره إشراقاً عظيماً، إذا يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول القلب، بعد إشراق نور الله عليه، ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فرأى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما صرح وقال (أنا الحق)»[٤].

كان تصوف الغزالي قريب من الاعتدال ، مبنيا على علم وعمل اما العلم وتم ذلك من خلال مطالعة مصنفات المتصوفة، وبالذوق والحال وتبدل الصفات[٥] ، فهو يقوم على التركيز على المومن أي الصوفي وعلى اهم ما فيه وهو القلب الذي يعتبر منبع المعرفة الذوقية فهو عند الغزالي ليس عضلة داخل الجسم بل تلك البصيرة فمتى تحققت معرفته فاضت السعادة كما ان الغزالى يوكد العلم بالقلب ويتم ذلك بطريق الالهام وذكر في كتاب الاحياء من التشبيهات تشبيه القلب بحوض محفور اسفل الحوض، ويرفع منه التراب الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر في اسفل الحوض [٦].

(١) منهاج العابدين ، الغزالي ، ص ١٠٨.

(٢) م. ن. ، ص ١٤٨.

(٣) إحياء علوم الدين ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، ت ١١١١/٥٥٠٥م)، (القاهرة : مطبعة التجارة الكبرى ، د. (ت) ، ج ١ ، ص٤.

(٤) الكشف والتبيين ، الغزالي ، ص ٢٢٣.

(٥) المنقذ من الضلال ، الغزالي ، ص ٢٧.

(٦) احياء علوم الدين ، الغزالي ، ج٣ ، ص١٩.

فقال الغزالي: «فاذا تولى الله امر القلب فاضت عليه الرحمة واشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة... وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا، والتبرؤ من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى»[١].

واستطاع الغزالي ان يوصف المحبة [٢] بانها مدركات وحواس ، ولكل حاسة إدراك وبالتالي يخصها الله لمن يشاء والطبع السليم يميل الى تلك المحبة والادراك[٣].

أما الزهد عند الغزالي فقد عرفه في الاحياء بقوله: «انه انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه ، فكل من باع الدنيا بالآخر فهو زاهد في الدنيا ، وقوام هذا الزهد التقوى ، وكف النفس عن الهوى وقطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود».

وللتصوف مقامات تسمى احوالا وهي التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق ويضبطها كلها قانون عام ، وهذه المقامات عند الغزالي نابعة من علم وعمل [٤].

ومن المناسب أن نعطي فكرة ولو موجزة عن كتاب «المنقذ من الضلال»، فهو على الرغم من صغر حجمه يعتبر من أعزر الكتب فائدة وتعريفاً بحياة الغزالي وآرائه وتصوراته والطريقة التي سار عليها للوصول إلى الحقيقة، فقد وصف في هذا الكتاب الذي الّفه في أواخر أيامه ما أحاط به من الشك ، وما كابده من المشقة في استخلاص الحق ومن اضطراب الفرق، وما ارتضاء لنفسه من طريق التصوف وما صرفه عن نشر العلم ببغداد ، ثم ما حمله على ترك عزلته لمعاودة نشر العلم في نيسابور، كل ذلك بأسلوب جميل تغلب فيه اللهجة. الخطابية على الكلام البرهاني. وليس كتاب المنقذ من الضلال كتاباً فلسفياً جافاً ككتاب التهافت، وإنما هو حكاية حال الغزالي نفسه، كيف انحلت عنه رابطة التقليد، وكيف استولى عليه الشك ، وكيف استشفى في النهاية بأدوية التصوف[٥].

---

(١) م. ن ، ج٣ ، ص ١٨.

(٢) م. ن. ج٤ ، ص٧٩.

(٣) تاريخ الفلسفة العربية ، جميل صليبا ، ط١(بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٠) ، ص٣٨٨.

(٤) إحياء علوم الدين ، ج٤ ، ص٢١١-٢٢٠.

(٥) م، ن ، ص٣٩٣.

وبالتالي فإننا سنقتصر في تحليل هذا الكتاب على الإلمام بثلاث مسائل وهي: الشك، انتقاد الفرق النبوة والإصلاح الديني.

١- الشك :

إنّ أول ما يسترعي انتباهنا في حياة الغزالي تعطشه إلى إدراك الحقيقة، فهو يشبه اضطراب الفرق، واختلاف المذاهب في زمانه، وبحر عميق غرق فيه الأكثرون، وإذا كان قد عزم على اقتحام لجة هذا البحر العميق والتوغل في ظلماته، فمرد ذلك إلى ميل طبيعي في نفسه. قال: «ولم أول في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور لأخوض الجبان الحذور وتوغل في كل مظلمة، واتهجم على كل مشكلة واقتحم كل ورطة، واتفحص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنها إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفله، ولا متكلماً الا واجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته، ولا وزديقاً معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه الأسباب جرأته في تعطيله وزندقته»[1].

٢- انتقاد الفرق

انحصرت الفرق عند الغزالي في أربع: فرقة المتكلمين، وفرقة الباطنية، وفرقة الفلاسفة، وفرقة الصوفية.

أ- فرقة المتكلمين : نرى أن علم الكلام غير واف بمقصوده ؛ لأن علماء الكلام يستندون في الرد على اهل البدع وإلى مقدمات بتسلمونها من خصومهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات.

ب- أما فرقة الفلاسفة فتنقسم في نظر الغزالي إلى ثلاثة اقسام: وهم الدهريون، والطبيعيون والإلهيون.

(١) المنقذ من الضلال ، ص٣.

- أمّا الدهريون فهم طائفة من الأقدين جحدوا الصانع المدير ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، ويكون هؤلاء هم الزندقة.

- وأما الطبيعيون، فهم قوم اكثروا البحث في عالم الطبيعة فأروا فيه من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، إلا أن كثرة بحثهم في الطبيعة واعتدال المزاج وتأثيره ، ظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ، وذهبوا إلى أن النفس تموت بموت البدن، وهكذا جحدوا الآخرة وانكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب، وهولاء أيضاً زنادقة.

- واما الإلهيون فانهم بجملتهم ردوا على الدهريين والطبيعيين ثم رد ارسطو على افلاطون وسقراط ومن كان قبله ، إلا أنه استبقى من رذائل كفرهم أشياء لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كالفارابي وابن سينا واترابهم ولكن هذا التفكير لا يشمل كل ما نقل عن أرسطو فإن ما نقله هذان الرجلان ينحصر في ثلاثة اقسام: قسم يجب التفكير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب انكاره أصلاً.

ت- وأما أصحاب التعليم ، فقد قرر الغزالي شبهتهم ، وأظهر فسادها في عدة كتب ، منها كتاب المستظهري ، وكتاب القسطاس المستقيم ، حتى لامه بعضهم على تقرير حجتهم واسهامه في نشرها، فأجاب عن ذلك بقوله أن هنا الكلام حق ولكن فيه شبهة لم تنتشر ، أما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولم يعمد الغزالي إلى تقرير حجته التعليمية لأن أصحاب التعليم يتهمون كل من يرد عليهم بالجهل فأراد الغزالي أن يثبت لهم أنه يستطيع أن يقرر شبهتهم إلى أقصى حدود الإمكان، وأن يظهر فسادها بغاية البرهان[١]

ث- وأمّا الصوفية فهم في نظر الغزالي خواص الحضرة، وأهل المشاهدة ، والمكاشفة وطريقتهم مؤلفة من علم وعمل وهم ارباب احوال لا اصحاب اقوال ، من جالسهم استفاد منهم بالإيمان ، فهم قوة لا يشقى جليسهم [٢]، وقال الغزالي : « ولو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، ولم يجدوا إليه سبيلاً»[٣].

(١) المنقذ من الضلال ، ص١٠ وما بعدها.

(٢) م. ن ، ص٣٢.

(٣) م. ن ، ص٣١.

٣- النبوة والاصلاح الديني :

نجد في كتاب المنقذ من الضلال فصل عنوانه " الحقيقة النبوة واضطرار الخلق اليها"، يشير فيه الغزالي إلى أن درجات الإدراك متفاوتة فجوهر الإنسان في الأصل خلق خالياً ساذجاً جاهلاً بما يحيط به من الموجودات، إلا أنه يطلع بعد ذلك على العوالم بواسطة الإدراك. وقد تنوعت الإدراكات بتنوع اجناس الموجودات، فقوة الحسن تدرك عالم المحسوسات، وقوة التمييز تدرك اورا زائدة على عالم المحسوسات، وقوة العقل ترك الواجبات، والجائزات والمستحيلات وأمور أخرى لا توجد في الأطوار التي قبلها. ووراء طور العقل قوة أخرى تدرك الغيب واموراً أخرى لا يدركها العقل ، فللإدراك اذن أربع مراتب أدناها مدركات الحس واعلاها مدركات النبوة.

والبرهان على وجود مدركات النبوة وجود معارف لا يتصور أن تنال بالعقل اكحقائق علم الطب والنجوم، فإن من يبحث عنها بعلم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بالهام الهي. والبرهان على وجود النبوة أيضا أن في الإنسان نموذجاً من مدركاتها وهو النوم، لأن النائم قد يدرك ما سيكون في الغيب، ويري ويسمع، ويبصره ويسمعه في حال غفلة، فالرؤيا تدل اذن على ان في الإنسان نموذجاً من خواص النبوة وهي تقرب مدركاتها من العقل وما عدا ذلك من خواص النبوة فهو بدرك لالذوق من سلوك طريق التصوف(١).

فالغزالي يقرر إذن أن النبوة مسلم بها نقلاً ، ومقبولة عقلاً ، ويكفي للتسليم بها من الناحية العقلية أن نلاحظ أنها تشبه ظاهرة نفسية تعترف بها جميعا، وهي الأحلام والرؤى ، والدليل على ذلك قول العزالي: " أن الله قد قرب ذلك على خلقه، أعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة وهو التوبة ، إذا النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير.

وبالتالي هذا ما اشتمل عليه كتاب المنقذ من الضلال من شك ويقين ونقد وتحقيق، فهو قصة حياة فكرية مضطربة وصورة نفس متعطشة إلى الإيمان طامحة في ارجاع الاعتقاد الديني إلى أيام عزه، لا بل هو قصة نزاع عميق بين العقل والقلب بين مطالب الدنيا ودواعي الآخرة ، كتبه الغزالي باسلوب سهل يغلب عليه طابع الصدق والأمانة والبساطة والصفاء.

(١) م. ن ، ص٣٣ وما بعدها.

الخلاصة

من خلال موضوع بحثنا (التصوف عند الغزالي) تبين لنا ان الغزالي كان احد رموز الطائفة الصوفية الذين ظهروا بعد ان امتزجت العقيدة الصوفية بافكار افلاطونية وهندية وفارسية ووثنية متناقضة مع الأصول الإسلامية فحاولوا ان يتقيدوا بالشريعة ، ويخلوا العقيدة الصوفية مما علق بها من شوائب ، لاسيما فكرتي الحلول والاتحاد والكشف الكلي عن الاسرار كما كان عند الحلاج او الكشف الجزئي كما كان عند الشبلي وغيرهما.

امتاز تصوف الغزالي بالصفاء والاعتدال نظريا وتطبيقيا فجاء منهاجه الصوفي مختلفا عن ما كان عند الفلاسفة والمبتدعين.لهذا انبرى الغزالي بنقد الصوفية انفسهم لاسيما الذين انكروا الشريعة وقاموا بإدخال عناصر فلسفية في التصوف كالاتحاد الصوفي الذي يؤدي الاشراك في ذات الباري عز وجل وحلول اللاهوت في الناسوت ، او التركيز في التصوف على الظواهر دون البواطن والعالم الداخلي ، حيث كان الامام الغزالي يؤمن بوجود معارف باطنية وراء الحقائق الحسية وهذه غاية الحياة العملية والنظرية ومقصد الصوفية والانبياء فكان بذلك مجددا في التصوف ذاته ، شانه شان الفقه وعلم الكلام والفلسفة وكان حاميا للدين الإسلامي ومن كان يقوض اركانه.

وهكذا أكون قد أنهيت هذا البحث المتواضع بالدعاء الذي ختم به الغزالي كتابه «المنتقد من الضلال» بقوله : «ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباء وأرشده للحق وهداه والهمه ذكره حتى لا ينساه وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه واستخلصه لنفسه حتى لا يبعد إلا إياه».

قائمة المصادر والمراجع

١. إحياء علوم الدين ، الغزالي ،أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، (ت٥٠٥هـ/١١١١م) ، (القاهرة : مطبعة التجارة الكبرى ، د. ت).

٢. الأدب في الدين ، الغزالي ،أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، (ت٥٠٥هـ/١١١١م) ، (القاهرة : دار ابن حزم ، ١٣٢٢هـ).

٣. اعمال أبو حامد الغزالي، صافي ، عمر بن سهلان ومجد الدين الجيلي ، (طهران ، مركز ناشر دنشجه ، ٢٠٠٢).

٤. الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المئة الخامسة، الشامي، صالح أحمد (بيروت: دارالقلم ١٤١٣هـ).

٥. بداية الهداية، الغزالي ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) ، تحقيق: محمد زينيم محمد عزب، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٣هـ).

٦. البداية والنهاية، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، (بيروت : دار المعارف ، ١٤١٠هـ).

٧. تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، أبو ريان ، محمد علي ،(بيروت : دار النهضة العربية ، د.ت)

٨. تاريخ الفلسفة العربية ، صليبا ،جميل ، ط ١ (بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٠).

٩. تحقيق كتاب الفتاوى للإمام حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م)، الطسة ، علي مصطفى ، رسالة ماجستير ، جامعة ام درمان الاسلامية ، كلية الدراسات العليا ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

١٠. الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص ، العثمان ، عبد الكريم ، (القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٦٣م).

١١. سير اعلام النبلاء ،الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م) ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ (بيروت:مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥).

١٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد ، عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) تحقيق : محمد الارناؤوط ، (بيروت : دار ابن كثير ، ١٤٠٦هـ).

١٣. طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين (٧٧١هـ / ١٣٦٩م) ، تحقيق : محمود محمد الطناحي ، ط٢ (بيروت : دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٣هـ).

١٤. طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ، ابو بكر احمد بن محمد بن عمر (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٧).

١٥. فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، الغزالي ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥) ه/١١١١م) ، (بيروت : دار البيروتي ، ١٤١٣هـ).

١٦. قراءة في كتب الإمام الغزالي الأصولية ، العلواني، زينب طه ، بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة ، السنة السابعة ، العدد : ٢٧ ، ٢٠٠١م.

١٧. الكشف والتبيين في غرور الخلق اجمعين ، الغزالي ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، (ت٥٠٥هـ/١١١١م) تحقيق: عبد اللطيف عاشور ، (القاهرة : مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٧٢هـ).

١٨. المنخول من تعليقات الأصول ، الغزالي ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (ت٥٠٥) ه/١١١١م)، تحقيق: محمد حسن هيتو ، ط٣ (دمشق: دار الفكر ، ١٤١٩هـ).

١٩. المنقذ من الضلال ، الغزالي ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (ت٥٠٥) ه/١١١١م) ط١(القاهره : مطبعة الجمالية ، ١٣٢٩هـ).

٢٠. منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، الغزالي ، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، (ت٥٠٥هـ/١١١١م) (بيروت : دار المنهاج للنشر والتوزيع ، ١٤٢٧هـ).

٢١. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، الكيلاني ، ماجد عرسان ، ط٣ (الامارات العربية المتحدة: دار القلم ، ٢٠٠٢).

٢٢. وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان،ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابراهيم (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) تحقيق: احسان عباس (بيروت : دار صادر ، ١٣١٨هـ).

المصادر الأجنبية :

1. Griffel، F. apstasie und Toleranz im Islam، Die Entwicklung zu al-Gazalis Urteil gegen die Philosophen und die Reaktionen der Philosophen، Leiden.